الجاحظ والاحنف بن قيس

بقلم شارل بلاّ

لقد اعتنيت في هذه السنين الأخيرة بالحِلم عند العرب مع ما يتكبده الباحث عن هذا المفهوم المركب العويص من مصاعب ومشاقّ إن أراد أن يتوغّل إلى أعماقه لأن عناصره متعددة الأوجه متناقضة متنافية ؛ فلما حاولت أن أحلّله تحليلاً مرضياً اعتمدت على أقوال القوم في الحلم وفيمن اختصّ به من السادة المشهورين ؛ وخاصة على ما ورد في كتب الأدب من الأخبار والنوادر الدائرة حول الأحنف بن قيس الذي ضُرب به المثل فقيل : « أحلم من الأحنف »[1] .

ثم وجدت في إحدى أضابيري فصلاً ممتعاً عقده الجاحظ على مواطنه الشهير ؛ فرأيت أن أنشره لأجل فائدته وقيمته الأدبية ؛ وإن كان ناقصاً مبتوراً[2] .

كان الاحنف[3] سيّداً مطاعاً وقائداً موفّقاً يعيش في القرن الأول للهجرة ، وكان عمر بن الخطاب عقد له الرئاسة على تميم البصرة ؛ فقعد عن وقعة الجمل ثم حضر صفين مع عليّ بن أبي طالب وافتتح البلدان الشاسعة ولم يزل يقوم بدور سياسي هام في البصرة حيث كانت تميم من أوفر عناصر أهلها عدداً وأقواها رجالاً وأوسعها نفوذاً .

---

١) راجع الميداني ، ١ : ٢٢٩ .

٢) قد اتفق لي ان نشرت في مجلة المشرق (ايار — حزيران ١٩٥٣ ، ١٨١—٢٠٢) رسالة جاحظية مأخوذة من مخطوطة كانت محفوظة في مكتبة برلين ؛ ويتضمن هذا « اختيار من كلام أبي عثمان الجاحظ » عدة نصوص متفرقة (راجع *Orient* ٧ / ١ : ١٩٥٤ ، ٨٥—٨٦) سبا فصول في بعض الشخصيات البارزة أمثال يحيى بن خالد بن برمك واحمد بن أبي دؤاد وابن الزيات وابراهيم بن السندي والنظام والحجاج واحسن البصري والمهلب بن ابي صفرة والاحنف بن قيس ؛ غير انه لم يتسن لي أن أتبين عنوان الكتاب المنتسبة منه هذه الصفحات .

٣) راجع *Encyclopédie de l'Islam* ، مادة « الاحنف بن قيس » .

وكان الأحنف قد اشتهر بالحلم فغلبت هذه الخصلة على سائر خصاله وضربت به الأمثال في حياته وبعد مماته دون أن يلتفت أحد إلى أسباب تلك الشهرة الخارقة فضلاً عن صحة الأخبار والأحكام المتداولة المتناقلة جيلاً جيلاً وعصراً عصراً ؛ ومن المعلوم أن الجاحظ حاول أن يحكّم العقل في جميع المضاربات وأن يميت بعض الأساطير الفاسدة والاعتقادات الباطلة وشرع فيما يعبّر عنه بـ démythification ؛ فان النص الذي سيقرؤه القارئ أوضح مثال لهذا المشروع الخصود غير أن أبا عثمان أبى إلاّ أن ينصف الأحنف — إن صح هذا التعبير — حتى عند مساوئه قبل أن ينوّه بمحاسنه ؛ فقال في كتابه في « فضل هاشم على عبد شمس »[1] : « لقد شهر الأحنف بالحلم ولكنه تكلم بكلام كثير يجرح في الحلم ويثلم في العرض » ؛ ثم وسّع هذه الفكرة الرئيسية في النص المنشور هنا ولم يتورع مع ذلك من أن يقول : « إن الحلم كان سيّد عمله » ويدافع عنه مدافعة قوية نتيجتها أنّ « الطاعن عليه [كذا] يريد أن يطمس الشمس ويردّ هبوب الريح » .

وقد يخيّل إلى من نظر في هذا النص نظرة خاطفة أنّ الجاحظ يحبّ التناقض ويتلاعب بالأفكار المتضادة فيحط من قدر الأحنف حتى يكاد ينكر حلمه ، ثم يبالغ في حمده ويطنب في ثنائه وفقاً لما وصفه به ابن قتيبة من تناول الشيء ونقيضه بالمدح أو الذم ؛ وإنما باطن الأمر خلاف ظاهره لأن الجاحظ يحضّ الناس على التفكير في الأمور فينظر إلى جميع المسائل والقضايا ويختلف وجوهها ليستنتج منها نتيجة قاطعة حاسمة ؛ هي فيما يخص الأحنف أنه يستحق شهرته بالحلم لأن هذه الفضيلة مثّل أعلى قلّما يبلغه الإنسان ؛ فيحتمل إذاً بعض التقصير ؛ ولذلك يذكر أبو عثمان من أفعال اي بحر ما كان مذموماً دون أن يُخرجه من اسم الحلم ؛ ثم إلى جانب ذلك يقول إن حلمه بان « من سائر أعماله » ؛ ومحاسنُ عبد المطّلب وخصال العباس بن عبد المطلب في المجد والشرف كانت متكافئة متساوية ؛ كلّ خصلة منها تتنصف من صاحبتها ... واذا كانت الخصال كذلك لم يغلب على صاحبها اسم دون اسم ورجع الأمر فيها إلى أن يسمّى سيداً وما أشبه ذلك من الأسماء الجامعة » ؛ ومراد ذلك أنّ السيد ، وإن كان الحلم شرطاً من شروط السيادة ، لا يكون سيّداً إلاّ إذا جُمعت في نفسه عدة خصال كالشجاعة والعدل وغير ذلك ؛ أما الأحنف فان كان أقرب الى السيد

---

١) رسائل الجاحظ ، ط السندوبي ، ١٠٤ .

الجاهلي منه إلى السيد الإسلامي ، لم يتميّز إلا بخصلة واحدة ولم يبلغ في استحقاق السيادة شأو سادة بني هاشم الذين كانت فضائلهم المتنوعة المتكافئة تجوز النهاية ؛ وهكذا يساعد وصف الأحنف على مدح بني العباس .

قال الجاحظ :

[٨١ ظ] وكان الأحنف بن قَيْس رجلاً [له] ما لو عددتُه لك من الطيْش والسُخف واللفظ الناحش والكلام القبيح الساقط ، ثم كتبتُه وجمعتُه ، ثم قرأتَه مجموعاً ، تخيّل إليك أنّه كان شيخاً فضلاً [عن] أن يكون من أوساط الناس .

وادّعت قَيس[1] أنّه كان يحبّ السلامة ويكره الفتنة[2] ، والذي ظهر للعيون من أمره وتجلّى لأهل الرأي والذي يقضي به العاقل يدلّ على الوهن والعجز وعلى الخوف والاستسلام !.

وكيف لم أن يعدّوا الأحنف بالوَرَع والتوقّي ، والأحنف رأس كلّ فتنة وقائد كل ضلالة ! فهلا تورّع بالإغراء بالزُبَيْر[3] حتّى قتله مَن قتله بسبب كلامه وتهجينه ؟ وعلى أنّه لم يُغرِ به إلاّ وهو ماضٍ إلى أجله تاركٌ لأعدائه ؛ وإنّ في انقطاعه إلى مُصعَب[4] [٨٢ و] وعونه له وفي تركه معونة عليّ[5] وفي تثبّطه عن طلحة والزبير وعائشة دليل على أنّه لم يكن صاحب دين .

ولو كان صاحب وَرَع ونظر لاعتقد رايتَه[6] على الناس يومَ الأزارقة ولم يتشبّث إلى المُهلَّب يسأله ذلك[7] .

١) كذا في الأصل ، والصواب : تميم ، لأن الاحنف تميمي لا قيسي ؛ فيغلب على الظن أن الناسخ وضع اسم والد الأحنف موضع اسم قبيلته .

٢) ومن كلامه المأثور في الفتنة قوله : « يا معشر بني تميم ، لا تسرعوا إلى الفتنة فان اسرع الناس الى القتال اقلهم حياء من الفرار » (البيان ، ٢ : ٧٢ ؛ البخلاء ، ٧) .

٣) هو الزبير بن العوام ؛ فقد قتل بعد ان غادر ساحة القتال يوم الجمل واتهم الاحنف بتدبير قتله ؛ راجع *Encyclopédie de l'Islam, EI* ، مادة « الجمل » .

٤) هو مصعب بن الزبير ؛ فلما ولي العراق انقطع اليه الاحنف وأعانه على قتال المختار ابن ابي عبيد ؛ راجع *EI* ، مادة « الاحنف » .

٥) يشير الجاحظ إلى وقعة الجمل ؛ ومن المعلوم ان الاحنف قعد عن القتال وكان من « المعتزلة » في ذلك اليوم .

٦) في الأصل : رايه ؛ ولعل الصواب ما اثبت وان كان ذلك كذلك فيلاحظ استعمال « اعتقد الراية » بمعنى : اخذها .

٧) كان الازارقة ، وهم فرقة مشهورة من الخوارج (راجع *EI* ، مادة « ازارقة »)

بل إذا كان يوم هيج وعصبية وحرب ضلالة فهو رئيس متبوع ؛ وإذا كان دفاع عن الحرمة والحريم وحرب هدى فهو تابع مغمور !

وهو الذي شتى[1] في قومه ليعين عثمان وينصره . ثم أطاع عائشة وترك رأيه والذي قدم له . وفارق علياً بعد أن غدر بطلحة والزبير وبعد أن أعطاهما صفقته . وعائشة ؛ فخذلهم وهم جيرانه وفي مصره وحريمه ؛ وكان إياس بن الجَوْن[2] يحلف بالله وبالعتق : « لما قتل الزبيرَ غيرُه! » .

وكان يرى التحكيم وعلى ذلك قدم البصرة مع مِسْعَر بن فَدَكي[3] وسعيد ابن قيس الحُدّاني[4] أخي المهلّب لأمّه ؛ وقد كان [٨٢ظ] يطعن على الحَكَمَيْن وأبى أن يسوّد اسمه .

وقال في مجلسه وذكر قَطَرِيّاً[5] : « إيه ! إنّ أبا نَعامة إن ركب بنات شحّاج[6] (أو قال : بنات أعرج) وتعشّى بأرض وتغدّى بأخرى ، طال أمرُه[7] ؛ ليبلغ ذلك الرأي قطريّاً فيستعمله[8]. فإن كان إنّما قال ذلك

يبندون البصرة وتراجيها (سنة ٥٠ /٦٨٤-٦٨٥) ؛ فطلب البصريون الى الأحنف أن يقتلهم ، فأبى ورأى ذلك المهلب بن أبي صفرة (راجع *EI* ؛ مادة « المهلب ») وهو سائر إلى خراسان من قبل عبدالله بن الزبير (راجع الطبري : ٢ : ٥٨٣) .

١) في الاصل : هى .

٢) لم نهتد الى تشخيص هذا الرجل .

٣) كان مسعر بن فدكي مع الاحنف في جيش علي لما قرأ الأشعث بن قيس كتاب التحكيم ؛ فنبذه او تظاهر بنبذه ، ثم خرج من البصرة وكان قائد البصريين في وقعة النهروان (راجع *Militia* ، والطبري ، ١ : ٣٣٦٥-٣٣٦٨ ، وشرح نهج البلاغة ، ١ : ١٩٢ ، ومروج الذهب ، ٤ : ٤١١ وما يليها = طبعة Pellat §§ ١٧١٧ وما يليها) ؛ الخ .

٤) في الاصل الحذاني ، ولم نهتد الى تشخيص هذا الرجل .

٥) هو قطري بن الفجاءة رئيس الازارقة ، قاوم بني امية سنين طوالا ، وكان شاعراً ؛ مات سنة ٧٨ او ٧٩/ ٦٩٨-٦٩٩ ؛ راجع *EI* ، والحيوان ، ٤ : ٣٥٨ ، والطبري ، ٢ : ٧٦٤-١٠٣٢ ؛ الخ ؛ وكان له كنيتان ، احداهما ابو محمد يكنى بها في حالة السلم ؛ والاخرى ابو نعامة يكنى بها في حالة الحرب .

٦) في الاصل : شجاع .

٧) ورد في القول في البغال (§ د ١) : ولما خرج قطري بن الفجاءة أحب ان يجمع الى رأيه رأي غيره ، فدس الى الاحنف بن قيس رجلا ليجري ذكره في مجلسه ويحفظ عنه ما يقول ؛ فلما فعل قال الاحنف : « لما انهم ان جنبوا بنات الصهال وركبوا بنات الهجان واسسوا بارض واصبحوا بارض طال لسرهم » .

٨) لا أدري أيعيد الضمير الى الرأي ام الى الاحنف .

لأنّه [كان] خارجياً أزرقياً مثل قطريّ : فهذا [عجيب] . وإن كان إنما أراد أن يكيد المهلّب حسَدًا وبغياً وعامّةَ جنده وأصحابه وبني عمّه . فهذا أعجب[1] .

وقال لامرأة من قومه أتتْه بمجْمَرة وقالت : « ضعْ هذا تحتك ! » حين أبطأ عن مناهضة الأزد[2] لتوبّخَه بذلك : « أنت المرأة أحقّ بالمجمرة ! » .

وبرز لملاطمة زيد بن جبَلة[3] ؛ فقيل له في ذلك : فقال : « إنما فعلتُ ذلك لأنّي قد علمت حيلَته » ؛ فكان عذره أعجب من فعله .

وقال للحتّات[4] وهو ينازعه : « أتكلّمني يا آدَر[5] ! » ؛ فكشف الحتات عن ... [6] ثم قال : « أسألكم ألا نظرتم لتعرفوا كذبه كما سمعتم سَفَهَه ! » .

وقال [٨٣ و] غيْلان بن خرَشة[7] : « أما ترى بأساً ؟ » — فقال له الأحنف : « ما لكم — لعنكم الله — كل الجاهليّة أتباعٌ في الإسلام » ؛ يعني ضبّة[8] لبني تميم .

---

١) في الاصل : عجيب .

٢) يشير الجاحظ الى ما حدث بالبصرة من الحوادث بعد وفاة يزيد بن معاوية (سنة ٦٤ / ٦٨٣) حين خرجت الأزد وبكر على تميم وقيس (انظر *Milieu*، ٢٦٨–٢٦٩) ؛ وروى الطبري (٢ : ٤٥٣) هذا الخبر فقال : « فاتته امرأة بمجمر فقالت : « ما لك ولرئاسة ! تجمر ذانما أنت امرأة — فقال : است المرأة أحق بالمجمر » ؛ وفي ٢ : ٤٦٢ ان المرأة قالت : « يا احنف اجلس على هذا » (اي : انما انت امرأة) — فقال : « استك احق بها » ، فما سمع منه بعد كلمة كانت أرفث منها وكان يعرف بالحلم » .

٣) كان زيد بن جبلة شريفاً من اصدقاء الاحنف (راجع البيان ، ٢ : ١٤٣–١٤٤) .

٤) هو الحتات بن يزيد المجاشعي ، صحابي كان الرسول قد آخى بينه وبين معاوية (راجع السيرة ، ٢ : ٥٦١ ، والبيان ، ١ : ٥٩ ، ٢ : ٣٧) ، والاصابة ، رقم ١٦١٢) .

٥) الآدر : البين الادر وهو النفخة في الخصية ؛ وفي شرح العيون ، ١١٠ : « اسكت يا آدر » .

٦) كلمة على وزن « بد » .

٧) غيلان بن خرشة الضبي ، سيد بني ضبة بالبصرة (راجع الجهشياري ، ١٤٨ ؛ وفارس البيان والحيوان والرسائل ، الخ) .

٨) كذا في الاصل وواضح ان الخبر ناقص مشوه ؛ فيستنتج مما قاله الجاحظ في الحيوان (١ : ٣٦٢) ان بني ضبة صاروا أتباعاً ؛ ثم يقول : « وقد أعان (؟) غيلان [وينبغي ان تصحح الحاشية الاولى] على الاحنف بكلمة » ، فقال الاحنف : عبيد في الجاهلية اتباع في الاسلام ، فان هربوا تفرقوا ، الخ » .

وقال لامرأته : « أنت طالق عددَ النجوم » ؛ وقيل له في زَبْراء جاريته ؛ وكان لا يرى بها شيئاً[1] وكان يطيعها . ومن أجلها قال الناس : « حاجت زبراء »[2]. فقال : « كيف لا أطيع مَن لي إليه كلّ يوم حاجة[3] ! ؟ » .

وواضَع رجلٌ من السَّفهاء أن يلطم سيّد بني تميم ؛ فأتى الأحنفَ فلطمه ؛ فلمّا فعل قال له : « لم تصنع شيئاً ! إنما واضَعوك على أن تلطم سيّد بني تميم وهو جاريةُ[4] بن قُدامة ! » ؛ فأتاه الرجل فلطمه ؛ فأخذه جارية[5] فقطع يده[6] ؛ وذلك كان أراد !

وكان فيمن زفّ سَجاح[7] إلى مُسيلمة .

وحسد ابنَ [أخته] إياسَ بن قَتادة[8] لقيامه بالحمالة وأراد أن يحوّلها إليه ، وكان هو أدخله فيها ؛ فهجاه إياس هجاءً كثيراً .

---

١) كذا في الاصل ، والمراد ، على ما يظهر ، أنه كان لا يرى شيئاً إلاّ بها .

٢) كانت زبراء إذا غضبت قال الاحنف : « قد هاجت زبراء » فغضبت مثلاً ؛ حتى قيل لكل إنسان اذا هاج غضبه : « قد هاجت زبراؤه » (الميداني : ٢ : ٣٤٦ ؛ وفي تاريخ الطبري ، ٢ : ٥٥٣ ؛ زيراً ؛ تحريفاً) ؛ ورجاه في سرح العيون (٢٠٦) : « وكان اذا اراد [الاحنف] حرباً قال الناس : قد غضبت زبراء ، فسار مثلاً ... فكانوا يكنون عن غضبه في الحرب بغضبها » .

٣) كذلك في سرح العيون ، ١١٠ .

٤) في الاصل وفي سرح العيون (١١٠) وفي كثير من المخطوطات كلها يذكر هذا الاسم : حارثة ، والصواب : جارية بن قدامة السعدي ، صحابي من انصار علي بن ابي طالب ، وهو الذي احرق دار الحضرمي بالبصرة سنة ٣٨ / ٦٥٨ مع ٥٠ رجلاً من اتباع علي (راجع EI ، مادة « جارية ») .

٥) وفي سرح العيون (١١٠) : « فمضى الرجل اليه فلطمه فقطع يده ، فقال الناس : انما قطع يده الأحنف ! » .

٦) هي سجاح بنت الحارث التميمية ، تزوجها مسيلمة الكذاب ، ثم عادت الى الإسلام (راجع البيان ، ١ : ٣١٨ ، و EI ، مادة « سجاح ») .

٧) كان الاحنف بعد أن تقاتلت الأزد وتميم سنة ٦٥ بالبصرة اقتسى السلح ؛ « فاجتمع القوم على ان ... يؤدي سائر القتل من الازد وربيعة فتضمن ذلك الأحنف ودفع اياس بن قتادة الهاشمي رهينة حتى يؤدي ... المال ... ؛ ففخر بذلك الفرزدق فقال :

ومنا الذي أعطى يده رهينة ... لغادي معد يوم ضرب الجماجم ، الخ » .

(راجع كامل للمبرد ، ١ : ١٢٣ ، وديوان الفرزدق ، ٨٦١) ؛ واما هجاء اياس للاحنف فقد ورد منه هذا البيت في البيان (٣ : ٢١٨) والحيوان (٣ : ٨٠) :

وإن من السادات مـن لو أطتـه ... دعاك إلى نار يفور سعيرهـا

وكان الأحنف بن قيس من الأشراف ومن السادة وممّن قدّمته العشائر طوعاً [٨٣ ظ] ورأسته الخلفاء اختياراً ؛ وتخطّأ الناس كلامه[1] وضربوا به المثل وأفشوا ذكره بالحلم[2] ؛ وفي طول ما مدح الله به عباده الصالحين من الأسماء الكريمة ووصفهم به من الخلال الشريفة : لم يمدحهم بشيء أكثر[3] من ذكره لهم بالحلم ؛ ولم تجد[4] ذلك إلاّ في موضعين من القرآن العزيز ؛ وقد وصف الناس بالحلم عاداً في الجملة وذكروا في الأشعار حلم لُقمان[5] ولُقَيم بن لقمان ؛ وقد ذكروا حلم قيْس بن عاصم[6] ومعاوية بن

---

١) فمن الحكم المنسوبة اليه : سمع الأحنف رجلاً يقول : « التعلم في الصغر كالنقش في الحجر » فقال : « الكبير كبير عقلاً ولكنه أشغل قلباً » (البيان ، ١ : ٢٥٧) ؛ قال له رجل : دلني على حمد بلا مروءة — قال : « الخلق السجيح والكف عن القبيح ؛ ثم اعلموا أن أدوى الداء اللسان البذيء والخلق الردي » (البيان ، ٢ : ١١) ؛ وقال : « لا مروءة لكذوب ولا سؤدد لبخيل ولا ورع لسيء الخلق » (البيان ، ٢ : ١١٩) ؛ وقال : « لأن أدعى من بعيد أحب إلي من أن أقصى من قريب » (البيان ، ٢ : ٢٠٠) ؛ وقال : « ما كشفت أحداً عن حالي عنده الا وجدته دون ما كنت اظن » (البيان ، ٢ : ٢٠٠) ؛ وقال : « لا راحة لحسود » (البيان ، ٤ : ٦٣) ؛ وقال : « من لم يصبر على كلمة سمع كلمات » (البيان ، ٢ : ٧٦ وزهر الآداب ، ٥٥) ؛ وقال : « التزم الصحة يلزمك المال » (البيان ، ٢ : ٩٣) ؛ وقال : « رب ملوم (او مذموم) لا ذنب له (البيان ، ٢ : ٣٤٤ ، ٣٦٤ ؛ والبخلاء ، ١٧٠ والحيوان ، ١ : ٢٤) ؛ وقال : « السؤدد من السواد » (البيان ، ١ : ٢٧٤) ؛ وقال : « صاحب الصمت لا يندماء نفعه وصاحب المنطق ينتفع به غيره والمنطق الصواب افضل » (الرسائل ، ١ : ٣٨٠) .

٢) في الاصل : العلم .

٣) كذا في الأصل ، والصواب على ما يظهر : أقل ؛ فان الله يصف نفسه بالحلم غير ما مرة إلاّ أنه لم يطلق اسم الحليم إلاّ على ابراهيم (٩ : ١١٥ و ١١ : ٧٧) واسحاق (٧٧ : ٩٩) من عباده ؛ وقد ورد في مجمع الأمثال (١ : ٢٢٠) ورواية عن الحسن [البصري؟] : « ما نعت تعالى [وفي المطبوع : الله] من الانبياء نعتاً أقل مما نعتهم به من الحلم ، فقال تعالى ان ابراهيم لحليم أواه منيب » .

٤) او : تجد .

٥) قال لقمان لابنه : « يا بني ثلاث لا تعرف : [لا يعرف] الحليم إلا عند الغضب ولا الشجاع إلا عند الحرب ولا أخيك الا عند الحاجة اليه » (المستطرف ، ٢ : ٢٦١) .

٦) هو قيس بن عاصم المنقري ، شاعر فارس شجاع ، وكان سيداً في الجاهلية والإسلام ؛ وفيه قال الأحنف : « تعلمت الحلم من قيس بن عاصم » (البيان ، ٢ : ٤٣ ، والميداني ، ١ : ٢٢٩ ، وشرح العيون ، ٦٠-١ ؛ وانظر ايضاً ابن خلكان ، ١ : ٣٣١) .

أبي سُنبان وحصْن بن حُذيفة[1] وزُرارة بن عُدُس[2] وحاجب بن زُرارة[3] ورجال كثير ؛ وما رأينا أحداً ممّن ذكرنا حظيَ بذكر الحلم كما حظي به الأحنف . وما رأينا هذا الاسم التزق والتحم وظهر على الألسنة كما رأيناه نسباً للاحنف بن قيس[4] .

ثم كان مع ذلك رئيساً في أكثر تلك المقامات ؛ فلم نر حالَه عند الخاصّة والعامّة وعند النسّاك والفسّاك [٨٤ و] وعند الخلفاء الراشدين والملوك المتغلّبين[5] . ولا حالَه في حياته ولا حالَه بعد موته إلاّ[6] مستويين ؛ فينبغي أن يكون قد سبقت له من النبي صلعم دعوة وقال فيه خيراً كما قد رووا وذكروا[7] ؛ أو يكون قد أضمر [من] حُسن النيّة ومن شدة الإخلاص ما لم يكن عليه أحدٌ من نُظرائه ؛ فإن قال قائل : «فأنتم تزعمون أنّ عبد المُطّلب كان أحلم الناس وكان العبّاس بن عبد المطّلب حليم البطحاء» ؛ قلنا إنّ الأحنف كان الحلم سيّد عمله ؛ فبان حلمه من سائر أعماله ، ومحاسنُ عبد المطّلب وخصالُ العبّاس بن عبد المطّلب في المجد والشرف كانت متكافئة متساوية . كلّ خصلة منها تنتصف من صاحبتها[8] وكأنّها

---

١) في الاصل : حصين ؛ هو حصن بن حذيفة الفزاري ، سيد ذبيان وقائدها في بعض حروبها (راجع فهرس البيان ، والشعر والشعراء ، الخ) .

٢) هو زرارة بن عدس بن زيد بن عبدالله بن دارم ، جاهلي كان حكماً في تميم (راجع البيان ، ٣ : ١٥١ ، ٤ : ٢٥ ؛ والاشتقاق ، ١٤٣–١٤٤ ؛ ولسان العرب ، مادة «عدس» ، الخ) .

٣) هو ابن زرارة المتقدم ذكره ؛ عاش الى ان وفد الى النبي واسلم (راجع الإصابة ، رقم ١٣٥٨ ؛ وفهرس المعارف والشعر والشعراء ، الخ) .

٤) قال الجاحظ (الحيوان ، ٣ : ٢٤٦) : «ولو أن الاحنف رأى حاجب بن زرارة او زرارة بن عدس او حصن بن حذيفة لتقدمهم على نفسه» (راجع ايضاً الحيوان ، ١ : ٣٧٤) .

٥) يعني بني أمية .

٦) في الاصل : ولا .

٧) قال العسكري في ذمّ الآداب (٦٤٤) : «وقد ذكر [الأحنف] النبي صلعم فاستغفر له ؛ فقد بعث النبي صلعم رجلاً من قومه بني سعد يعرض عليهم الإسلام ، فقال الاحنف : «إنه يدعوكم إلى خير ولا أسمع إلا حسناً» ؛ فذكر ذلك النبي صلعم فقال : «اللهم اغفر للأحنف» ؛ وكان الاحنف يقول : «ما شيء أرجى عندي من ذلك» (راجع ايضاً سرح العيون ، ١٠٤–١٠٥) .

٨) في الاصل : صاحبها ؛ يعبر الجاحظ عن هذه الفكرة بعينها في كتاب فضل هاشم على عبد شمس (ط. السندوبي : رسائل الجاحظ ، ١٠٤) وفي الحيوان (٣ : ٩٢) .

كما قال الشاعر[1] :

جاءت تَبُضُّ الأرض أيَّ هَضٍّ يدفع عنها بعضها ببعض
مثل العذارى سُنَّ عين الغُضي

[٨٤ ظ] وإذا كانت الخصال كذلك لم يغلب على صاحبها اسم دون اسم ورجع الأمر فيها إلى أن يُسمّى سيّداً وما أشبه ذلك من الأسماء الجامعة ؛ فأمّا الانبياء — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — فانّ التسمية لهم بالرسالة والنبوّة تأتي على الغايات وتجوز النهايات .

وقالوا : كان الأحنف أحنف[2] من رجليه جميعاً[3] : ولم يكن له إلاّ بيضة واحدة ؛ وكان قد ضُرب على رأسه بخراسان فماتت[4] إحدى عينيه ؛ وقال له الحُتات : « إنك لقَتيل وإنّ أمَكَ[5] لوريهاء[6] » ؛ وقال أبو الحسن[7] : « وُلد الأحنف موثق جَنان الاست حتّى قُتق وعولج » ؛ فإن كانت هذه الخصال كذباً وباطلاً ، فانّا لا نشكّ أنّ الحسد [هو] الذي قد أخرج من أعدائه هذه الأمور : [و]لم يكن إلاّ على نعمة سابغة غامرة وإلاّ على خصال عالية فاضلة ؛ ثم لم يضرّه ذلك ولا وضع منه ، ولا زادته

---

١) هو ركاض الدبيري على ما ورد في اللسان (مادة « هضض ») ؛ قال ابن الانباري: يقول : هي إبل غزيرات تدفع ألبانها عنها قطع رؤوسها.

٢) الحنف في القدمين اقبال كل واحدة منها على الاخرى بإبهامها ؛ وكانت أم الاحنف ترقصه وهو طفل فتقول: والله لولا حنف في رجله ما كان في فتيانكم من مثله (راجع سرح العيون ، ١٠٥) .

٣) « روى الهيثم بن عدي عن ابي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير قال : قدم علينا الاحنف بن قيس الكوفة مع المصعب بن الزبير ، فما رأيت خصلة تذم في رجل إلاّ وقد رأيتها فيه : كان ضيل الراس احمق الافف اعقف الأذن متراكب الاسنان اشدق مائل الثفن نافق الركبة باخق العين خفيف العارضين احنف الرجلين ، ولكنه اذا تكلم جلى عن نفسه » ؛ فيقول الجاحظ : « ولو استطاع الهيثم ان يمنعه البيان أيضاً لمنعه ولولا انه لم يجد بداً من ان يجعل له شيئاً على حال لما أقر بانه إذا تكلم جلى عن نفسه » (البيان : ١ : ٥٩ ؛ انظر ايضاً رواية اخرى في زهر الآداب ، ٦٤٤) .

٤) ماتت اي : سالت .

٥) في الاصل : وانك .

٦) كان الاحنف قد افتخر بتمام عظامه في شعر له ، واستشهد عليه يونس بهذا القول (راجع البيان ، ١ : ٥٩) ؛ والوريهاء : الخشفة التي لا تمالك حقاً .

٧) يغلب على الظن انه ابو الحسن المدائني .

الأيام إلاّ رفعةً وإخالات إلاّ رئاسةً ؛ وإن كانت هذه الخصال [٨٥ و] قد كانت فيه وكانت معروفة ؛ فلم تنقص من قدره عورة ولا فسخت من معاقد رئاسته عقدة ؛ فليعلم الطاعن عليه أنّه يريد أن يطمس عين الشمس ويردّ هبوب الريح .

وكان الأحنف أبيَن الناس في كل حال وأخطبهم في يوم محفل وتصنّع [و] في يوم أمن واسترسال .

هو صاحب الزحوف بخراسان وقد انغمس بيديه في حومة الحرب ثلاث مرّات وقال[1] :

إن عـلى كلّ رئيسٍ حتّا أن يخضبَ الصَّعْدَةَ أو تندتّا

وسار تحت لوائه الأقرع بن حابس[2] وكان واليَه على جوزَجان[3] ؛ ومشى مع جنازته مصعب بن الزبير * بغير حذاء ولا رداء[4] ؛ مع علمه بما قال الناس في شأنه وفي شأن ابن جُرموز[5] ؛ وهو الذي ، لمّا طمع عبد الملك [. . . . .][6] للجفوة التي كانت بينه[7] وبين مصعب وجرّوا إليه رسولاً ، قال للرسول : « أبلغ صاحبَك أنّه إن لم * يُعزّنا لم نعزّه[8] وإن أتانا لم نقابله » ؛ فعندها قوي عبد الملك [٨٥ ظ] في نفسه .

وممّا يدلّ تواضعه[9] وحسن نعمته وعلى أنّه يعمّ[10] بالراي ولا

---

١) البيت موجود في اللسان : مادة « صعد » ، وفي شرح العيون ، ١٠٨ ؛ والصعدة : القناة التي نبت مستقيمة .

٢) هو الاقرع بن حابس التميمي ، صحابي مشهور ، وهو من المؤلفة قلوبهم (راجع EI ، مادة « الاقرع ») .

٣) في الاصل : الخورجان .

٤) في الاصل : بعير جذا او لا زدا ، وفي زهر الآداب (٦٤٧) : بغير رداء ؛ وفي شرح العيون (١١٢) : ماشياً بغير إزار .

٥) في الاصل : بن حردور ؛ وعمرو بن جرموز هو الذي قتل الزبير ، والد مصعب ؛ بعد ان دله عليه الاحنف ، على ما زعم الناس (انظر اعلاه ، ص ٦٦٣ ، وراجع شرح نهج البلاغة ، ١ : ٧٨-٧٩ ، وشرح العيون ، ١١٠ ، الخ) .

٦) يلوح ان الجملة ناقصة ، ولعله قد سقط منها : « في مساعدته » أو ما أشبه ذلك .

٧) في الاصل : بغيرنا لم نغزه .

٨) راجع الحيوان (٤ : ٢١٢) ؛ قال : « ما من الناس أحد الا وقد تعلمت منه شيئاً حتى من الامة الوضيعة والعبد الاروه » وغير ذلك مما يدل على تواضعه .

٩) في الاصل : نعم .

يخص[1] ما رووا من شأن الرجل الذي قال له: « يا أبا بحر، ما يمنعك من دخول المقصورة؟ » — قال: « وأنتَ، فما يمنعك من ذلك؟ » — قال: « لا أُترك »[2] — قال: « فلذلك لا أدخلها »[3].

وتكلّم الناس عند معاوية في توكيد البيعة ليزيد، والأحنف ساكت؛ فقال معاوية: « لمَ لا تتكلّم يا أبا بحر؟ » — قال: « أخافك إن صدقتُك وأخاف الله إن كذبتُك »[4].

وأطرى رجل من قريش يزيد بن معاوية عند معاوية؛ فلمّا خرج مع الناس، أقبل على الأحنف، فقال: « والله، إنّي ما قلتُ الذي قلتُه رغبةً أو رهبةً، فإنّي ما علمت.....[5] » — فقال له الأحنف: « اسكت! فإن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً! »[6].

وشهد مصعباً يوماً وهو يوبّخ رجلاً ويقرعه ويقول: « أبلغني عن قولك الثقة، وأبلغني عنك الثقة » — فقال: « كلا! إنّ الثقة لا يُبلغ! ».

وهذا الذي كتبت لك قليل [٨٦ و] من كثير؛ فلقد رجأتُ الإخبار عن بلاغة لسانه[7] وعن كبرِ معرفته بما لا يحصى؛ وإنما أردتُ أن تعرف حسن نيّته، وقد كتب عمر بن الخطّاب رضه إلى سعد بن أبي وقّاص: « يا سعد، يا سعد بني وُهَيْب[8]، إن الله إذا أحبّ عبداً حبّبه إلى خلقه؛ فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس واعلم أن ما لك عند

---

١) في الاصل: يحص.

٢) في الاصل: الا انزل.

٣) روى الجاحظ في الحيوان (٣: ٤٧٢) أن « الأحنف كان يكره الصلاة في المقصورة؛ فقال له بعض القوم: « يا ابا بحر لم لا تصلي في المقصورة؟ — قال: انت، لم لا تصلي فيها؟ — قال: لا أترك »..

٤) كذلك في البيان (١: ٢١١)؛ وفي كامل المبرد (٤٦): « اخاف الله ان كذبت واخافكم ان صدقت ».

٥) في الاصل: لكذا وان اسه (؟) لكذا.

٦) وفي البيان (٢: ١٤٩): « فلما خرج من عنده استغفر في ذمها؛ فقال له الاحنف: مه! فان ذا الوجهين ... ».

٧) امثلة بلاغته كثيرة في كتب الجاحظ وغيره؛ راجع مثلاً البيان، ١: ٢٥٤، ٢٤١ و٢: ٨٨، ٢٩٢ و٣: ٢٠٦، والرسائل، ١: ٣٤٤ وزهر الآداب، ٦٤٤ (مثل البيان، ٢: ١٣٥)، الخ.

٨) في الاصل: وهب؛ وفي البيان (١: ٢٦١): أهيب.

الله مثل ما لك عند الناس»[1] ؛ فنحن نظنّ أن هذه المنزلة التي صارت للاحنف في قلوب الناس بمنزلة[2] الإسلام من قلبه .

وهو الذي لمّا دخل في الوفد على مسيلمة الكذاب فخرج من عنده: [و]قال بعض رؤساء القوم : « كيف رأيته ؟ » ــ قال : « والله ما هو بنبيّ صادق ولا بمتنبّي[3] حاذق !» .

وهو الذي لمّا وفد على عُمَر رضه [و]تنازعوا الكلام عنده أمسك حتى كان عمر هو الذي استنطقه[4] ؛ وخصّ القوم بالكلام فذكروا شأن أنفسهم وتكلّم الأحنف عمّن غاب عن المجلس : فتكلّم في مصلحة العباد [٨٦ ظ] والبلاد ؛ رحمه الله تعالى .

---

١) كذلك في البيان ، ١ : ٢٦١

٢) كذا والمعنى مفهوم .

٣) في الاصل : يخيب .

٤) راجع البيان ، ١ : ٢٣٧ و ٢ : ٢٤٤ ، وزهر الآداب ، ٦٤٢ ، وشرح للميون ، ١٠٥ ، الخ .